ربّي لا تقسُ في تأديبنا

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

سيّدي،

لعلّ أقسى ـ ما في إنجيلك، أنك تركت الحنطة مع الزؤان، حتّى الدينونة الأخيرة، فأفهمتنا أنّ كنيســتك، على الأرض، ليســت مجموعة قدّيســين، بقدر ما هي جماعة مجاهدين يطلبون القداسة،

قد يبلغونها، وقد لا يرونها إلا من بعيد، ومرّات كثيرة قد لا يرونها أبداً.

أردتها جماعة طلاّب حقّ، والحقّ هو أنت، وفيك يُرى. ونحن نتعجّب من كونها مضطَهدة، وفي نزاع، حتّى منتهى الدهر.

نزاعاتنا وخطايانا، التي نلصقها بك، تصوّر لنا أنّنا ندافع عنك، وعن جسدك الممدود في الأرض.

بينما الواقع يقول: إنّنا لهذا وذاك من خدّامك، أكثر ممّا لك.

علّمتنا أيضاً أنّ القداسة لا تُعطى، إلا عندما تُطلب حقّاً في الطريق الضيّق.

وهكذا عرفنا أنّنا يجب أن نضيّق على أنفسنا، لا على غيرنا، وأنّه يجب أن نطالب أنفسنا بالحقّ والاستقامة، قبل أيّ شيء آخر.

ثم قدّمت حياتك من أجل أن يكون للحقّ والطهر والبذل المكان الأرفع في خليقتك. فكانت ذبيحتك ترجمة حقيقية لكلامك الطاهر.

ولأنّك ماهيتَ، بتواضعك، شخصك بكلمتك. كانت حياتك كلّها نزولاً.

لم تصعد إلا مرّتين.

الأولى كانت من أجل أنْ يســمع الجمع الغفير تعليمك، فصــعدت إلى الجبل، لتعطيهم الشريعة الجديدة.

والثانية على الصليب. على تلة الجلجلة، قبلت أن يرفعوك شهيداً، لتعانق العالم بيديك المبسوطتين عليه.

فكان ارتفاعك هذا ذروة النزول، لأنّه أفضى بك إلى قبر، في مغارة أرضيّة.

وبنزولك الأقصىـــ هذا، عدت فقمت وفجّرت الحياة، تلك التي قلت في إنجيلك، إنّك أتيت من أجل أن تعطيها لنا، ومن أجل أن يكون فينا ملؤها.

أمّا نحن، فكثيراً ما نتصرّف على العكس منك.

نحبّ التشاوف والتعاظم، وأن يرانا الناس زعماء، أكثر من خدّام وآباء!

نريد أتباعاً، ولو سقناهم إلى الهلاك.

ولأنّنا صغار نكبر، لا بك، بل بهم، لنشعر بأنّنا فاعلون ومؤثّرون وذوو مكانة.

إنْ كان أبناؤك، لمحبّتهم لنا، لا يعرفوننا إلا من الخارج، فأيّ تبرير لنا، ونحن نعرف أنفسنا،

ونعلم كمّ الدناءة والضعة والقذارة التي في دواخلنا؟

هلاّ علّمتنا يا سيد كيف ننزل كي ترفعنا؟

ألا توجّهنا إلى معرفة الرفعة التي تليق بشعبك وخدّامك؟

ألا يكفينا أن نكون عند قدميك؟

أليس الملء كلّه في أن نصغي إليك، كما فعلت مريم، فحصلت على النصيب الصالح، الذي لا يُنزع منها؟

في غمرة انتشائنا بذواتنا وأنانا، ننساك مرّات كثيرة، يا سيّدي، ونستبدلك بأتباعنا!

ننشغل بالشيطان الساكن فينا، ونتبع وساوسه، فلا نعود نراك، أو نسمعك. وهكذا، يقودنا المجد الباطل، إلى أن نفعل ما نراه وما نعتقده الحقّ، في ما هو، في الحقيقة، آثامنا.

فلا نعود نميّز، يا سيدي، بين أهوائنا وغيرتنا على بيتك!

لا تدع ربّي الاضطرابات تسوقنا إلى السلوك بعكس إنجيلك.

ترأَّف بنا وبقسوتنا، واسكب فينا من رحمتك الكثير الكثير.

لقد حمّلتنا مسـؤولية رهيبة، لأنك ارتضـيت بأن يكون روحك القدّوس في أوانٍ خزفية، هي نحن السريعي الانكسار!

كيف نحافظ على أوانينا دون عطب، والانزلاق سـهل جدّاً، والوهم بأنّنا أتباعك المكلّفون بإصلاح كنيستك والعالم مغرٍ جداً؟

ربّي كم من مرّة جُرِّبنا بأن نعمل على عكس إنجيلك، كي نخدم كنيستك الخدمة الفضلى!

وكم خالفنا إنجيلك عندما قدّسنا الوسيلة من أجل الوصول إلى الغاية!

وكمْ خُنّاك عندما أزحناك واستخدمناك أداةً لمصالحنا ورغباتنا!

علّمنا، ربّي، أنّنا لسنا بأفضلَ منك، لأنه ما من عبد أفضل من سيّده،

ساعدنا كي نقبل مثالك، مثال العبد المضطهَد لا المضطهِد،

سدّد خطانا لتكون أنت المحبوب الأوّل.

واجعلنا نصغي إليك أكثر ممّا نتكلّم عنك، فنميّز حسناً بين مشيئتك وأهوائنا.

سيّدي، علّمتنا كثيراً، عبر التاريخ، أنّك تسمح بالاضطهاد الخارجي والداخلي عندما نزوغ عن الحقّ ونضلّ الطريق المستقيم.

لا تؤدّبنا بقسوة، ربّي، فإنّنا نكاد لا نحتمل.

أبقنا بقية تشـهد لك، لملء الحياة التي أردتها، وللفرح الذي أطلقته ملائكتك مذ شرّفت أرضنا بزيارتك.

سئم الناس يا مسيحي كنيستك بسببنا، فاغفر لنا واهدنا الطريق القويم.

نريدك أنت، ربّي، فلا تدعنا نتلهّى عنك بما يخصّك.